من خطابنا الحضاري في التراث

علي ومسيرة الحضارة الإسلامية /٤

(الصفحات ١٠٣- ١١٤)

ملخّص

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) واصل مسيرة الإحياء بعد رسول الله(ص)، وبذلك صان المسيرة الحضارية الإسلامية من الجمود والركود. نهج البلاغة وثيقة هامة في حقل الإحياء والاستنهاض الحضاري، سواء في رسائله أو خطبه أو كلماته القصار. وهذه وقفات عند كلماته القصار.

قال عليه السلام: « اعْقِلُوا الْخَبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ لا عَقْلَ رِوَايَةٍ فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ ورُعَاتَهُ قَلِيلٌ».

هذه قاعدة حضارية هامة في التلقي.. تلقي الخبر وتلقي العلم وتلقي منهج السلوك. واعقلوا هنا تعني: تلقّوا، وتوجيه الإمام أن نتلقى الخبر برعاية. أي بتعهّد تربيته وتنميته، لا أن نردده بالأفواه دون أن ننمّيه وننضجه.

كل تطوير للحركة الحضارية يتطلب رعاية ما نتلقاه كي ننميه ونطوّره وننضجه. والذين يقرأون ويرددون ما قرأوه كثير، والذين يطورون ما يقرأون ويفكرون ويتعمقون فيما يتلقون قليل.

بين «الرعاية» و«الرواية» فرق كبير. فالرعاية أن تفهم الخبر وتنظر في جميع جوانب أموره، وتثريه في فكرك، وتأخذ منه النتيجة المطلوبة النافعة، وهي عملية عقلية شعورية هادفة، أما الرواية فهي عملية تخزين في الذاكرة، واسترجاعها على اللسان. الرعاية عملية حضارية، والرواية اجترار وتكرار

***

قال عليه السلام: «وَ مَدَحَهُ قَوْمٌ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي وَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُمْ اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا خَيْراً مِمَّا يَظُنُّونَ واغْفِرْ لَنَا مَا لا يَعْلَمُونَ».

من مظاهر انحطاط الأمم كثرة الذين يحبّون المدح والثناء، وما يتبع ذلك من كثرة المداحين والمتملقين.

ومن مظاهر الذاتية والزيف والشعور بالنقص حبّ الفرد أن يُمدح ويثنى عليه، وهذا ما ساد في تاريخنا بين فئات الطبقة الحاكمة، وساد معه شعر المديح الذي أزرى بالأدب وجعل الشاعر غالبًا يدخل في تجربة شعورية كاذبة.

الإمام بردّه على الذي مدحه في وجهه ينهى بأدب جم عن هذه الحالة التي تعبّر عن تخلّف حضاري.

هذه العبارة لا ينطق بها إلاّ من كان هدفه الأسمى أن يتكامل ويتسامى في نفسه وعمله. الناس العاديون يطربون للمدح ويهزّهم الثناء، ومثل هؤلاء يتجه همهم إلى أن يكبروا في عيون الآخرين، أما الذي يريد أن يكبر في نفسه وفي عمله الحقيقي الواقعي، فلا يرى في المدح إلاّ إغفالاً عن الواقع والحقيقة، فيعود إلى نفسه ويخاطب ربّه ليطلب منه أن يجعل سريرته خيرًا من قول المادحين.

* * *

وقال عليه السلام: « لا يَسْتَقِيمُ قَضَاءُ الْحَوَائِجِ إِلا بِثَلاثٍ بِاسْتِصْغَارِهَا لِتَعْظُمَ

وبِاسْتِكْتَامِهَا لِتَظْهَرَ وبِتَعْجِيلِهَا لِتَهْنُؤَ».

في عبارة الإمام توجيه إلى سبيل معالجة الأمور:

﴿باستصغارها﴾: حتى تكتمل وتظهر جليّة (تعظم).

واستصغار الأمور حالة نفسية لا تتحقق إلاّ في نفس عظيمة: «وتصغر في عين العظيم العظائم». واستصغار المهمّة تجعل القادم عليها واثقًا من إنجازها غير متهيّب منها.

﴿وباستكتامها﴾: وكتمان المهام لا يفعله إلاّ ذوو الصدور الواسعة والقلوب الكبيرة، من الذين يستوعبون الأمور، ولا تضيق صدورهم بها.

﴿وبتعجيلها﴾: عدم التباطؤ والتسويف في الإنجاز، والتباطؤ والتسويف من مظاهر الإرادة الضعيفة المهزوزة.

التوجيهات الثلاثة في معالجة الأمور تدخل في تربية الإنسان المؤهل لحمل المسؤوليات الكبار.

* * *

وقال عليه السلام: « وَرُئِيَ عَلَيْهِ إِزَارٌ خَلَقٌ مَرْقُوعٌ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ : يَخْشَعُ لَهُ الْقَلْبُ وتَذِلُّ بِهِ النَّفْسُ ويَقْتَدِي بِهِ الْمُؤْمِنُونَ إِنَّ الدُّنْيَا والآخِرَةَ عَدُوَّانِ مُتَفَاوِتَانِ وسَبِيلانِ مُخْتَلِفَانِ فَمَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وتَوَلاهَا أَبْغَضَ الآخِرَةَ وعَادَاهَا وهُمَا بِمَنْزِلَةِ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ ومَاشٍ بَيْنَهُمَا كُلَّمَا قَرُبَ مِنْ وَاحِدٍ بَعُدَ مِنَ الآخَرِ وهُمَا بَعْدُ ضَرَّتَانِ ».

في النص ثلاثة عناصر ثقافية: ١- الإعراض عن المظاهر والتفاخر والتكبر. ٢ـ نزول الحاكم إلى أدنى مستوى معيشي في المجتمع. ٣- علاقة الدنيا بالآخرة.

الأول: فيه دعوة إلى الاهتمام بتكوين الإنسان النفسي والفكري والروحي، فهذا التكوين هو الذي يوزن به الإنسان، لا بمظاهره التي غالبًا ما تؤدي إلى قسوة القلب

وجموح النفس. لباس الإمام (يخشع له القلب وتذلّ به النفس).

والثاني: يؤدي إلى تحويل السلطة إلى خدمة لا غنيمة، ولذلك فعطاؤه كبير على المجتمع، كما أنّه يقدّم القدوة التي تبعد عامة المؤمنين عن التظاهر والتفاخر والتكاثر والتنافس المحموم على حطام الدنيا.

الثالث: نقف عنده بمقدار ما يسعه هذا الاستعراض. (الدنيا والآخرة عدوان متفاوتان).. ولا يقصد الإمام الدعوة إلى الإعراض عن خوض ساحة الحياة... فهو الإمام الذين دخل هذه الساحة من أوسع أبوابها، محاربًا وداعية وإمامًا وحاكمًا ومعلّمًا وموجهًا في سبيل الله.

القصد هنا أن يكون الإنسان مالكًا لزمام الحياة لا أن يكون مملوكًا لها، وأن يكون ممتطيًا لصهوة الدنيا يوجهها وفق معتقده وإيمانه، لا أن يكون منقادًا خاضعًا عديم الإرادة فيها.

الدنيا المبغوضة هي التي تصدّ الإنسان عن الأهداف العليا وتجعله منشدًا بالصغائر وتجعل همومه لا ترقى عن الهموم الغريزية.

الاهتمام بالآخرة يعني الاهتمام بمسؤوليات الاستخلاف والأمانة الكبرى، وبقطع طريق الكمال نحو الكامل المطلق. ومن الطبيعي أن يكون هذا الاهتمام متعارضًا مع الانشداد إلى الهموم الدنيوية الصغيرة.

* * *

وقال عليه السلام: « لا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ لاسْتِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضَرُّ مِنْهُ ».

أمر الدين في نص الإمام هو ما يدفع الناس نحو حركتهم الإحيائية، وترك هذا الأمر (لاستصلاح دنياهم) يعني ترك الأهداف الكبرى في الحياة من أجل الحصول على مغانم

صغيرة، وهذه انتكاسة في المسيرة الحضارية. ولعلّ ما حدث ويحدث من انتكاسات في مسيرة الشعوب عامة ومسيرة التاريخ الإسلامي خاصة يعود إلى هذا الهبوط في التطلعات والأهداف والاهتمامات.

* * *

وقال عليه السلام: « **رُبَّ عَالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ وعِلْمُهُ مَعَهُ لا يَنْفَعُهُ**» .

العالِمُ في تعبير الإمام قد يكون جاهلاً، لا ينفعه علمه. والمقصود بالعالم هنا من اختزن المعلومات، دون أن يعقل. أي دون أن يربط بينها ليحولها إلى مشروع حركة في الحياة الفردية والاجتماعية. ومن هنا حملت كتب التراث تقابلاً بين (العقل) و(الجهل)، لا بين (العلم) و(الجهل).

* * *

وقال عليه السلام: « **نَحْنُ النُّمْرُقَةُ الْوُسْطَى بِهَا يَلْحَقُ التَّالِي وإِلَيْهَا يَرْجِعُ الْغَالِي**».

والنمرقة: ما يستند إليه. وعظمة علي وأهل بيته تتجلى أكثر ما تتجلى في هذه (الوسطية). فهم المعيار الذي يوازن بين التأخر والتطرف، بين (التالي) و(الغالي). وفي تاريخنا الإسلامي حتى يومنا هذا نلاحظ مشهدي الإفراط والتفريط، وتقف إمامة أهل البيت أمام المشهدين لتكون المرجع الوسط، ولتحقق ما أراده الله لهذه الأمة من وسطية ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا﴾ وهذه الوسطية هي التي تؤهل الأمة الإسلامية لأن تكون شاهدة على الساحة، وأن توازن بين شعوب العالم في حركتها.

* * *

وقال عليه السلام: « **لا مَالَ أَعْوَدُ مِنَ الْعَقْلِ ولا وَحْدَةَ أَوْحَشُ مِنَ الْعُجْبِ ولا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ وَلا كَرَمَ كَالتَّقْوَى ولا قَرِينَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ ولا مِيرَاثَ كَالأَدَبِ ولا قَائِدَ كَالتَّوْفِيقِ وَلا تِجَارَةَ كَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ولا رِبْحَ كَالثَّوَابِ ولا وَرَعَ كَالْوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ**

ولا زُهْدَ كَالزُّهْدِ فِي الْحَرَامِ وَلا عِلْمَ كَالتَّفَكُّرِ وَلا عِبَادَةَ كَأَدَاءِ الْفَرَائِضِ ولا إِيَمَانَ كَالْحَيَاءِ والصَّبْرِ ولا حَسَبَ كَالتَّوَاضُعِ وَلا شَرَفَ كَالْعِلْمِ وَلا عِزَّ كَالْحِلْمِ وَلا مُظَاهَرَةَ أَوْثَقُ مِنَ الْمُشَاوَرَةِ ».

في النص مفردات كثيرة تثري المنظومة الثقافية الإسلامية.

– (لا مال أنفع من العقل). فالعقل ثروة يحسّ معها المرء بالغنى، وإذا فَقَدَ العقل فَقَدَ هذا الإحساس حتى وإن اجتمعت عنده الأموال الطائلة.

وكم من الأفراد والشعوب انهمكوا في تكديس الثروة، لكنهم لم ينتفعوا بها! وكم منهم من استثمروا عقولهم، فكانت عندهم الثروة النافعة!

ـ والعُجب وحشة، لأن المعجب بنفسه يتعالى على الناس ويحتقرهم، فينعزل عنهم. ويرى نفسه دائمًا بأنه مغبون لم يُعط حقّه فيسخط على مَنْ حوله.

ـ والتدبير أفضل مراتب العقل، لأن التدبير هو التفكير في عاقبه ما يؤول إليه الأمر. أي إنه التفكير المستقبلي. وهي دعوة هامّة إلى أن نفكّر في المستقبل ونخطط له ونرسم آفاقه، فذلك من كمال العقل.

ـ والعلاقة بين الكرم والتقوى قد لا تكون واضحة. ولكن إذا فهمنا الكرم بأنه ما يجود به الإنسان لينتفع به الآخرون، والتقوى إلزام النفس على الخروج من الذاتية والأنانية، نفهم العلاقة بينهما.

فالتقوى حين تكون بالمعنى المذكور فإنها ستحول الإنسان إلى بذل وعطاء حقيقيين.. إلى إحسان لا ينتظر مقابلاً، وإلى كرم لا يريد تظاهرًا وسُمعة. ومن هنا فإنه (لا كرم كالتقوى).

ـ (ولا قرين كحسن الخلق) فالإنسان يُعرف بقرينه، ولا شهرة للإنسان أفضل من أن يعرف بحسن الخلق. ثم إن القرين يربّي ويوجّه وينمّي ويشرح الصدر وينفي السأم،

وهكذا يفعل حسنُ الخلق.

ـ (ولا ميراث كالأدب) والأدب هنا نفهمه من قول رسول الله(ص): «أدبني ربّي فأحسن تأديبي» وهو مكارم الأخلاق، ولا شيء يرثه الإنسان أفضل من هذا الميراث.

ـ (ولا قائد كالتوفيق) . والتوفيق تسهيل طريق الخير للإنسان. ولا توفيق إلا بالله. ولا يتيسّر طريق الخير إلا بفضله سبحانه وهدايته. وهذا الفضل وهذه الهداية لا يتيسران إلاّ بسنن إلهية تقوم على تغيير نفس الإنسان.

ـ (ولا تجارة كالعمل الصالح). الإنسان بطبيعته يحب الربح ولذلك يحبّ التجارة.. والعمل الصالح تجارة لن تبور. وبذلك يعيّن الإمام معيار الربح والخسارة بما يقدمه الفرد من عمل صالح مفيد للمجتمع، ومثله قوله: (ولا ربح كالثواب).

* * *

وقال عليه السلام: « هَلَكَ فِيَّ رَجُلانِ مُحِبٌّ غَالٍ ومُبْغِضٌ قَالٍ »

هذا معيار يعطيه الإمام لكيفية الارتباط بشخصيته، إنه شخصيّة بلغت من العظمة بحيث افتقد كثيرون حالة الاعتدال في الارتباط به، بعضهم بلغ من حبّه درجة الغلو وبعضهم بلغ من بغضه مرتبة متطرفة فكان قاليًا.

وهذا ما يفسّر ظهور الغلاة من جهة والنواصب من جهة أخرى في موقفهم من علي(ع). والموقفان متطرفان، ودعوة الإمام إلى الاعتدال في الأفكار والعواطف تجاه شخصيته.

* * *

وقال عليه السلام: «لأَنْسُبَنَّ الإِسْلامَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسُبْهَا أَحَدٌ قَبْلِي الإِسْلامُ هُوَ التَّسْلِيمُ والتَّسْلِيمُ هُوَ الْيَقِينُ والْيَقِينُ هُوَ التَّصْدِيقُ والتَّصْدِيقُ هُوَ الإِقْرَارُ والإِقْرَارُ هُوَ الأَدَاءُ وَالأَدَاءُ هُوَ الْعَمَلُ».

إسلام يؤدي إلى تسليم أمام خالق الكون، والتسليم يؤدي إلى إيمان ويقين لا إلى استسلام محض، واليقين يؤدي إلى تصديق ما جاء به الإسلام، أي إلى قبول تعاليمه عن فهم ووعي، ثم إن التصديق يؤدي إلى الإقرار أي أن يدخل هذا التصديق شغاف القلب، وإذا دخل شغاف القلب تحول إلى مشروع عملي هو الأداء، والأداء يؤدي إلى حركة في إطار هذا المشروع. المهم أن يتحول الإسلام في حياة الإنسان إلى برنامج عملي يعيشه بعقله وشعوره.

* * *

وقال عليه السلام: : «عِظَمُ الخالقِ عندك يصغّر المخلوق في عينيك»:

عِظم الخالق عند الإنسان يعنى أنه وضع الله سبحانه هدفًا لكسب رضاه، وهو هدف تكاملي كبير يجعل كلّ شيء صغيرًا أمام هذا الهدف. وإنسان يعظم الله في عينيه لا يُذلّ نفسه لمخلوق، ولا يخضع لظالم ومتجبّر مهما علا وتغطرس، إذ يراه صغيرًا في عينيه.

* * *

قال كميل بن زياد: «أَخَذَ بِيَدِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (عليه السلام) فَأَخْرَجَنِي إِلى الْجَبَّانِ، فَلَمَّا أَصْحَرَ تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ ثُمَّ قَالَ :

يَا كُمَيْلَ: إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ:

النَّاسُ ثَلاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، ومُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، ولَمْ يَلْجَئُوا إلى رُكْنٍ وَثِيقٍ. يَا كُمَيْلُ الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ، والْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ والْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الإِنْفَاقِ، وصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ. يَا كُمَيْلَ مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ ، بِهِ يَكْسِبُ الإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ وجَمِيلَ الأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، والْعِلْمُ حَاكِمٌ وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ. يَا كُمَيْلُ هَلَكَ خُزَّانُ الأَمْوَالِ وهُمْ أَحْيَاءٌ، والْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ،

أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، وأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ. هَا إِنَّ هَاهُنَا لَعِلْماً جَمّاً (وأَشَارَ بِيَدِهِ إِلى صَدْرِهِ) لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً، بَلَى أَصَبْتُ لَقِناً غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ، مُسْتَعْمِلًا آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا، ومُسْتَظْهِراً بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وبِحُجَجِهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، أَوْ مُنْقَاداً لِحَمَلَةِ الْحَقِّ لا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ، يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ. أَلا لا ذَا ولا ذَاكَ، أَوْ مَنْهُوماً بِاللَّذَّةِ سَلِسَ الْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ، أَوْ مُغْرَماً بِالْجَمْعِ والادِّخَارِ لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ، أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهاً بِهِمَا الْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ، كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ. اللَّهُمَّ بَلَى لا تَخْلُو الأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً، وَإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً، لِئَلا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وبَيِّنَاتُهُ، وكَمْ ذَا؟ وأَيْنَ أُولَئِكَ ، أُولَئِكَ واللَّهِ الْأَقَلُّونَ عَدَداً، والأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْراً، يَحْفَظُ اللَّهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وبَيِّنَاتِهِ حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ، ويَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ، هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ، وبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ، واسْتَلانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ، وأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ، وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الأَعْلَى، أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَالدُّعَاةُ إِلى دِينِهِ. آهِ آهِ شَوْقاً إِلى رُؤْيَتِهِمْ. انْصَرِفْ يَا كُمَيْلُ إِذَا شِئْتَ».

هذه نفثة صدرت من أعماق صدر الإمام ، فقد وجد في كميل بن زياد الشخصية التي تعي هذه النفثة، فأخذ بيده إلى الصحراء، وتنفس الصعداء، كأنه يحمل همًا كبيرًا يريد أن يبوح به. وتحدث أولاً عن القلوب، وقال خيرها أوعاها، أي أكثرها استيعابًا وفهمًا ودركًا.

ثم تحدث عن الناس وقسّمهم على ثلاثة أقسام:

(عالم ربّاني)، وذكر كلمة ربّاني، أي إنه عالم متحرك إلى الكامل المطلق سبحانه، لا العالم الجامد المغرور بمعلوماته. والثاني (متعلم) لا ليتحرك نحو المطلق، ولكن لكي لا يقع في مزالق ما يقطعه من شوط قصير.

أما غيرهما فلا شخصية له ولا موقف، ولا اتجاه واضحًا ولا مقصدًا فيه رفعة وسموّ. وأمثال هذا يميلون مع الباطل، ويصغون إلى المرجفين، ويسيرون خلف المهرّجين. ثم قارن الإمام بين العلم الذي يحرص عليه طلاب الكمال والمال الذي يحرص عليه من لا يعرف للكمال الإنساني معنى.

ويفرّق الإمام بين العالم الحقيقي والمتظاهر بالعلم. ويقول إن هؤلاء المتظاهرين بالعلم إما أن يكون الواحد منهم:

لَقِنًا (يتلقّف مايسمع) لكنه لا يحفظ حرمة ما يتلقنه بل يستعمله سلّمًا لأغراض دنيوية، ويستعين بنعمة العلم لإيذاء الناس.

أو منقادًا دونما بصيرة، ومثل هذا المنقاد لا يستقيم على طريق، بل قد ينقدح فيه الشك ويصاب بالانحراف (لأوّل عارض من شبهة).

أو منهومًا بالشهوات وجمع الأموال، كالبهيمة .

وهذه الأصناف الثلاثة من المتظاهرين بالعلم يعملون على إماتة العلم، لأن العلم يجب أن يتحول إلى جذوة متوقّدة تبعث على الحركة والحياة.

ثم يستدرك الإمام بالقول: (اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة)، لا تخلو من المترفعين عما سقط فيه الأصناف الثلاثة. فهم علماء متحلّون بحقيقة البصيرة وروح اليقين، وقادرون على تجاوز العقبات وتذليل الصعاب (استلانوا ما استعوره المترفون) أي كان أمامهم لينًا ما رآه المترفون صعبًا خشنًا. إنهم يعيشون في هذه الدنيا غير أن مقصدهم رفيع سام (صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحلّ الأعلى) و(أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه).

وما أجمل هذه النفثة (آه آه شوقًا إلى رؤيتهم!)

وما أجمل الخلوة التي أرادها الإمام بعد هذا التفريغ لهمّه الكبير: (انصرف يا كميل إذا شئت)!

* * *

وقال عليه السلام: «هلك امرؤ لم يعرف قدره».

هذا توجيه كبير من الإمام لأن يعرف الإنسان ما فيه من طاقات وكفاءات وإمكانات وقوى كامنة. لأن كل ذلك مما أودعه الله في نفس الإنسان ليمارس دور الخلافة على ظهر الأرض، فإذا جهل تلك الوديعة ابتعد عن ممارسة الدور المطلوب. وبذلك لا يبقى لوجوده معنى، وهو الهلاك عينه.

* * *

وقال عليه السلام: «من قصّر في العمل ابتُلي بالهمّ، ولا حاجة لله فيمن ليس لله في ماله ونفسه نَصيب».

العبارةُ تعالج مسألة ثقافيّة هامة، وهي الحثّ على نوع خاص من العمل الذي يتحرك فيه الإنسان خارج إطار متطلبات الذات.

لابدّ للإنسان أن يسعى ويتحرك غير أنه إذا كانت حركته في إطار تلبية غرائزه وذاتيته وأنانياته ابتُلي بالهموم.. الهموم الصغيرة التي لا حدّ لها ولا حصر. والساعي على طريق السموّ والكمال قد يُبتلى بالهموم أيضًا، لكنّها هموم كبيرة تبارك العمر وتزكيه، وتشرح الصدر وتضع عن صاحبها الوزر.

والله سبحانه مع الذين يعطون من أموالهم وأنفسهم في سبيله، أي في سبيل الكمال والسموّ.

وأما الذين يعيشون في قوقعة ذاتياتهم فلا حاجة لله بهم، أي يهملهم وشأنهم، ولا يأخذ بأيديهم إلى سبيل الرشاد.

* * *

وقال عليه السلام: «إضاعة الفرصة غُصّة».

الاستفادة من الوقت عنصر ثقافي هام للحركة الحضارية. والعمر كلّه فرصة ليثبت فيها الإنسان لياقته لعملية الاستخلاف، وإضاعة الوقت وتفويت فرص التكامل في الحياة مما لا يمكن جبرانه، لذلك كان غصّة ونكدًا في الحياة.

* * *

وقال عليه السلام : «شَتَّانَ مَا بَيْنَ عَمَلَيْنِ عَمَلٍ تَذْهَبُ لَذَّتُهُ وتَبْقَى تَبِعَتُهُ وعَمَلٍ تَذْهَبُ مَؤُونَتُهُ ويَبْقَى أَجْرُهُ».

في العبارة تمييز رائع بين عملين: الأول ينطلق من غريزة يندفع إليها الإنسان طلبًا للذّة، لكنه لا يؤدي إلى عطاء، بل يتحمّل صاحبه وزر عواقبه وتبعاته بعد أن تذهب اللذة المطلوبة. والثاني عمل فيه جهد واجتهاد وتحمّل أعباء، لكنّ أعباءه ومؤونته تذهب ويبقى العطاء الذي يندرج ضمن ما يؤجر عليه صاحبه.